

تاريخ القبول: 2020/08/26

تاريخ الإرسال: 2020/01/10

تاريخ النشر: 2021/01/30

ماهية الفكر الفلسفي في العالم الإسلامي من منظور غلام حسين
الإبراهيمي الديناني

**wath is philosophical thought in the islamic world
from the perspective of Ghulam Hussein Brahimi
Dinani**

رابح رزيق¹ ؛ بن عומר رزيق²

جامعة محمد بن أحمد وهران 2 (الجزائر)، rabahrezig6@gmail.com

جامعة محمد بن أحمد وهران 2 (الجزائر)، ben.rezki.yahoo.fr

المخلص:

يهدف هذا البحث الى الوقوف على ماهية وحقيقة الفكر الفلسفي في العالم الاسلامي من منظور أستاذ الحكمة الاسلامية في جامعة طهران "غلام حسين الابراهيمى الدينانى"، تلك الماهية التي شغلت أجيالا من الباحثين في الغرب والشرق، مستشرقين وإسلاميين، وغيرهم، ومنذ منتصف القرن التاسع عشر والى اليوم تشكلت آراء متعددة ومتنوعة، وللديناني موقف لا يخلو من الجدة والابتكار في هذا الخصوص، فهو يعتقد أن ماهية الفلسفة الاسلامية لا بد وأن نبحت عنها في تلك الانتقادات والمؤاخذات التي تعرضت لها من المناهضين والمناوئين لها، وحقيقةً لم نعثر، على حد علمنا، على هذا النوع من الفهم للفلسفة الاسلامية في فضاء الفكر العربي والاسلامي الحديث والمعاصر، ولذلك نعرض لهذا الموقف ونحاول الوقوف على مدى موضوعيته ووجاهة طرحه.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة الإسلامية، الفقه، العرفان، علم الكلام، الديناني.

Abstract:

This research aims to identify the nature of philosophical thought in the Islamic world from the perspective of Ghulam Hussein Ibrahim al-Din al-Dinani, that which occupied generations of researchers in the West and East, orientalist, Islamists, and others, and from the mid-nineteenth century until today, various and diverse opinions have been formed, and Dinani has an opinion, It is not free from novelty and innovation in this regard, as he believes that the essence of Islamic philosophy must be sought in those criticisms and misfortunes that it has been subjected to from opponents and opponents to it, and in fact we have not found, as far as we know, this kind of understanding of Islamic philosophy in the space thought of The Arab and the Modern and contemporary Islam, and therefore we present this opinion and try to determine the extent of its objectivity and the relevance of its proposition.

Keywords: Islamic philosophy, jurisprudence, Sufism, theology, Dinani.

المؤلف المرسل: رابح رزيق، الإيميل: RABAHREZIG6@GMAIL.COM

مقدمة:

لم تكن الفلسفة الإسلامية على وتيرة واحدة طوال تاريخها، فقد واجهت تحديات كبيرة لإثبات أحقيتها في الوجود، وفرادتها وأصالتها واختلافها عن الفلسفات الأخرى، وكانت دائما في قلب الصراع مع عدة تيارات واتجاهات داخل العالم الإسلامي وحتى من خارجه، إلى أن بدأ نجمها يأفل شيئا فشيئا مع نهاية القرن السادس الهجري.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر وإلى اليوم تشكلت آراء متعددة ومتنوعة، بشأن هذه الفلسفة، وكان لأستاذ الحكمة الإسلامية في جامعة طهران غلام حسين إبراهيمي الديناني¹، موقفه بخصوص اشكاليات الفلسفة الإسلامية، ولعل من أبرزها

ماهية الفكر الفلسفي في العالم الاسلامي، وهنا يمكن أن نتساءل: كيف ينظر الدينامي الى الماهية؟ وهل يقدم جديدا في هذا المضمار؟ وما مدى موضوعية وجدية الطرح الذي يقدمه؟

وللإجابة على هذه التساؤلات نسعى من خلال العرض التالي، الى طرح وجهة نظر الدينامي بخصوص ماهية الفكر الفلسفي في العالم الاسلامي، ونحاول اختبار موضوعية ووجاهة هذا الطرح، وقبل ذلك لا بد من الاشارة الى المفاهيم الشائعة التي قدمت للتعبير عن ماهية وحقيقة الفلسفة الاسلامية، على أننا يمكن أن نقول إن المفهوم الذي يقدمه الدينامي لهذه الفلسفة لم نعر عليه عند باحثين وكتاب آخرين، سواء من العرب والمسلمين، أو من المستشرقين.

أولاً: المفاهيم الشائعة عن الفلسفة الاسلامية

الجدل بشأن الفلسفة الاسلامية وماهيتها ليس وليد اليوم، بل إنه يضرب جذوره بعيدا في تاريخ التراث الإسلامي، فمنذ أن نقل المسلمون الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية، تلقاها الناس بكثير من الاختلاف والتباين، فاشتغل بها أناس ودافعوا عنها، وانتقدها آخرون وأعرضوا عن أهلها، وكان الكندي، أول الفلاسفة الإسلاميين الذين دعوا إلى الاشتغال بالفلسفة، كل بحسب طاقته، وقد ذكر عدة مفاهيم لهذا العلم الجديد الوافد إلى العالم الإسلامي، ومن بينها أن الفلسفة: "علم الأشياء الأبدية الكلية، إنياتها ومائيتها، وعللها بقدر طاقة الإنسان"²، وهذا المفهوم يختلف قليلا عن المفهوم الشهير الذي أورده أرسطو مثلا والذي أخذ به الفارابي وابن سينا وغيرهما، عندما قالوا: "إن الفلسفة هي البحث في الوجود بما هو موجود".

وكذلك قوله "بقدر طاقة الإنسان" دليل على أن الفلسفة التي قصد إليها الكندي هي للناس جميعا، كل بحسب قدرته وطاقته، وهذا على خلاف ابن رشد مثلا

الذي جعل الفلسفة مهنة للصفوة من الناس، وفي الحقيقة فإن هذا المعنى - الذي أورده ابن رشد - يوناني الأصل.

وقد شدد الكندي على ضرورة طلب الحق أيا كان مصدره وفي ذلك يقول: "وينبغي أن لا نستحي من استحسان الحق، واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المبائية، فإنه لا شيء أولى بطلب الحق من الحق"³، وهذا في الحقيقة يعبر عن الروح الإسلامية التي تميز بها الكندي، حيث نجد كثيرا من المأثورات الإسلامية التي تدعو إلى طلب الحق واقتنائه من قبيل: "الحكمة ضالة المؤمن" و"خذ الحكمة ولا يضرك من أي اناء خرجت".

وهو حين يقول: وإن أتى من الاجناس القاصية عنا والأمم المبائية، يشير إلى ضرورة اقتناء العلوم والمعارف الفلسفية اليونانية والفارسية والهندية وغير ذلك، وهذا في مقابل جماعة من الفقهاء والمحدثين الإسلاميين الذين رأوا في هذا خطرا على الدين ووحدة الأمة الإسلامية.

وأما عن ابن سينا فكان هو الآخر من أشد المدافعين عن الفلسفة، وفي ذلك يقول عنه الديناني: "لولا آثار ابن سينا لما كان بالإمكان التكهن بمصير الفلسفة الإسلامية وما هو الشكل الذي يمكن أن تكشف فيه عن نفسها"⁴.

وفي تعريفه للفلسفة كتب ابن سينا يقول: "هي استكمال النفس الإنسانية بتصور الأمور والتصديق بالحقائق النظرية والعملية على قدر طاقة الإنسان"⁵، فأما الحكمة النظرية فمدارها في العلوم التي لنا أن نعلمها، وليس لنا أن نعمل بها، فيما الحكمة العملية فهي التي تجمع بين معرفتها والعمل بها، وهنا نلاحظ أن ابن سينا هو الآخر ينطلق من مفاهيم إسلامية من صميم النصوص الدينية، حيث أن الإسلام يؤكد على حقيقة أن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها.

وأما بالنسبة لابن رشد فإنه يعتبر أن النظر الفلسفي واجب ومأمور به في الشرع "ف فعل الفلسفة ليس أكثر من النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع، أعني من جهة ماهي مصنوعات فإن الموجودات إنما تدل على الصانع لمعرفة صناعتها، وأنه كلما كانت المعرفة بصناعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم، وكان الشرع قد ندب الى اعتبار الموجودات وحث على ذلك"⁶، وقد استند ابن رشد في دعم موقفه هذا، في كثير من المرات، هذا على آيات قرآنية عديدة.

إن النظر في تعريفات أشهر الفلاسفة المسلمين للفلسفة، يؤكد على اهتمامهم الحقيقي بهذا العلم والدعوة إليه، والدفاع عنه، ومن جانب آخر، لا شك في أن ثمة حضورا بارزا للصبغة الدينية في تعاطيهم مع هذا العلم، تنطلق من النصوص الإسلامية نفسها، ذلك أن "الفلسفة الإسلامية راعت أنها محكومة بالإسلام، فحاولت أن تكون ذات صلة بتعاليمه"⁷.

بهذا المعنى يمكن أن نقول مع الديناني: "إنه ليس لدينا مفكر إسلامي مقلد لأفلاطون وأرسطو، فأرسطو الذي يراه ابن سينا يختلف عن أرسطو الذي يفهمه الغرب، فابن سينا قد تحدث مع أرسطو، والأفكار التي أخذها منه، صبها في قالب منسجم مع الثقافة الإسلامية، وعليه فهوية الفلسفة الإسلامية، هوية أخرى"⁸، بما يتعداها عن التبعية للفلسفة اليونانية.

أما عن أولئك الذين أشاروا إلى الفلسفة الإسلامية وأهلها، من غير الذين اشتغلوا بها فهم كثيرون في تاريخ الثقافة الإسلامية، ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى ابن خلدون الذي رأى أن العلوم العقلية، بما فيها علوم الفلسفة، غير مرتبطة بأقوام دون أقوام، أو بملة دون أخرى، وقد كان له من الفلسفة الإسلامية تحديدا موقف سلبى، حيث رأى أن علم الفلسفة الذي دخل الى البلاد الإسلامية، فاسد

وباطل، وقد وضع في ذلك فصلا في مقدمته، أسماه: "في إبطال الفلسفة وفساد منتحلها"، وكتب عن قيمة الفلسفة قائلاً: "ليس فيها إلا ثمرة واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجج، لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين"⁹.

هذه لمحة سريعة عن المفاهيم الشائعة لعلم الفلسفة الذي دخل إلى العالم الإسلامي، واصطبغ بعقيدة أهله، والحقبة أن هذه اللوحة لا تعطينا صورة كافية عن مفهوم الفلسفة الإسلامية، إلا إذا أضفنا إلى ذلك كلاماً عن الدراسات الحديثة والمعاصرة التي اشتغلت بميدان الفلسفة الإسلامية وألفت فيه، وهنا يمكن أن نلاحظ أن ثمة تعدداً في الرؤى والتصورات إزاء هذه الفلسفة.

فمنذ منتصف القرن التاسع عشر أعيد الاهتمام بالفلسفة الإسلامية، نتيجة الصدمة الحضارية التي أصابت العالم الإسلامي، عند احتكاكه بالعالم الغربي مجدداً، وهنا بدأ الجدل حول مفهوم هذه الفلسفة، وتم الكشف عن كثير من كنوز التراث الفلسفي الإسلامي، وكان لبعض المستشرقين دور في ذلك.

وبالنسبة لبعض المستشرقين، ليست الفلسفة الإسلامية إلا إعادة صياغة للفلسفة اليونانية بلغة جديدة، فالمسلمون لم يضيفوا شيئاً، باستثناء أنهم حفظوا أمانة اليونان، ليعيدها إلى الغرب من جديد في فترة لاحقة، وبالتالي فإن الكلام عن فلسفة إسلامية، ما هو إلا محض ادعاء لا أساس له من الصحة.

ونتيجة لهذه الدعاوى الاستشراقية ضد التراث الفلسفي الإسلامي، ظهر جيل من الباحثين المسلمين حاول الرد على الافتراءات الاستشراقية وسعى إلى تبيان حقيقة الفلسفة الإسلامية وأصالتها، ومن أشهر هؤلاء مصطفى عبد الرزاق الذي عرض لبعض الآراء الاستشراقية المتحاملة على الفلسفة الإسلامية وناقشها في كتابه الهام: "تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية"، لينتهي إلى نتيجة مفادها أن ماهية الفلسفة الإسلامية لا يمكن أن تقتصر، فقط، على منجزات الفلاسفة المشائين المعروفين من

أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم، بل إنه لا بد أن نبحث عن حقيقة هذه الفلسفة في العديد من المباحث المعرفية التي زخر بها تراث الثقافة الإسلامية.

وفي هذا السياق كتب مصطفى عبد الرازق يقول: "وعندي أنه إذا كان لعلم الكلام ولعلم التصوف من الصلة بالفلسفة ما يصوغ جعل اللفظ شاملا لهما، فإنّ علم أصول الفقه المسمّى أيضا علم أصول الأحكام ليس ضعيف الصلة بالفلسفة، ومباحث أصول الفقه تكاد تكون في جملتها من جنس المباحث التي يتناولها علم أصول العقائد الذي هو علم الكلام، بل إنك لترى في كتب أصول الفقه أبحاثا يسمونها "مبادئ كلامية"، هي من مباحث علم الكلام، وأظن أن التوسع في دراسة تاريخ الفلسفة الإسلامية سينتهي إلى ضم هذا العلم إلى شعبها"¹⁰.

لقد كانت الفلسفة الإسلامية، عبر تاريخها الطويل، في قلب الصراع دائما، وهي لم تسلم في العصر الحديث، لا من بعض المستشرقين ولا من غيرهم، كما لم تسلم ولم يسلم أهلها في القديم أيضا من المناوئة والمعارضة، التي وصلت إلى حدّ التشهير بهم وقتلهم، في بعض المرات، وفي هذا السياق يقدم لنا الديناني موقفه من الفلسفة الإسلامية، ويحدد لنا مفهومها من خلال ما تعرضت له هذه الفلسفة عبر تاريخها من تحديات وأزمات، وهي رؤية فريدة من نوعها، نحاول الوقوف عليها تاليا.

ثانيا: ماهية الفلسفة الإسلامية من خلال معارضتها ومحاربتها

في معرض حديثه عن حركة الفكر الفلسفي في العالم الإسلامي يرى الديناني أن الفلسفة الإسلامية تتجلى من خلال تلك الحركة الجدالية التي تميز بها هذا الفكر على مدار تاريخه الطويل، ومن خلال تلك الحركة يمكن فهم ماهية هذه الفلسفة، والوقوف على مدى أصالتها وفرادتها واختلافها عن الفلسفة اليونانية، على أن هذه الحركة شهدت خلالها الفلسفة الإسلامية معارضة شديدة ومناوئة حادة أدت الى رمي

المشتغلين بها بالكفر والزندقة والإلحاد، وفي بعض المرات كانت نهاية بعضهم القتل.

إن المعارضة التي لقيتها الفلسفة الإسلامية في فضاء الفكر الإسلامي، حسب الديناني، ساعدت على نمو هذه الفلسفة واغنائها، "فتلك المعارضات ليست لم تؤدي الى ضعف الفلسفة فحسب، وإنما عملت على تكاملها وتطورها ايضا... ولذلك أدت ألوان المعارضة والمجابهة التي تعرضت لها الفلسفة الإسلامية الى تكامل هذه الفلسفة وساعدت على انضاجها، وأعتقد أن الفلسفة الإسلامية هي هذا الواقع بالذات"¹¹.

إن حقيقة الفلسفة الإسلامية باعتقاد الديناني هي حصيلة تلاحق الأفكار بين الحكماء والعرفاء والمتكلمين وليست مجرد تأثر بالفكر اليوناني كما يدعي البعض، والحقيقة أن معارضة الفلسفة ومحاربتها ليست وليدة اليوم أو الأمس، بل هي قائمة منذ القدم ولها قصة طويلة، "وقلما نجد في تاريخ الثقافة والفكر الإنساني زما خاليا من الصراع بين المعرفة الفلسفية من جهة، وبين التيارات المناهضة للفلسفة من جهة أخرى"¹²، حتى في بلاد اليونان مهد الفلسفة، كما يقولون، كان ثمة من يعارض الفلسفة ويحارب أهلها، وهؤلاء غالبا كانوا من أهل الفنون، فنون الخطابة والجدل على وجه الخصوص، وقد أطلق عليهم اسم السوفسطائيين، وهم يمثلون تيارا معرفيا له حضوره البارز في الثقافة اليونانية القديمة في عهد سقراط وأفلاطون وغيرهما.

ورغم معاداة السوفسطائيين للفكر الفلسفي، فقد كان ذلك التجاذب بينهم من جهة، وبين الفلاسفة من جهة ثانية، يجسد عصرا معرفيا ونهضويا في تاريخ الثقافة اليونانية القديمة "لقد كان هذا العصر في الواقع عصر نهضة، وهو يعني عصر استنارة"¹³.

وليس تاريخ الثقافة الإسلامية بدعا من تاريخ الثقافات العالمية، فالفلسفة الإسلامية هي أيضا كان لها أعداء من قبيل السوفسطائيين وفي هذا الإطار "لا بد من الالتفاف الى أن السفسطة ليست بالأمر الذي يمكن أن يمحي وإلى الأبد بجهود سقراط وأفلاطون وأرسطو، فتعاليم السفسطة يمكن أن تظهر بشكل أو بآخر في كل مرحلة"¹⁴، وإذا كان الحال كذلك بالنسبة للفلسفة اليونانية، فالأمر سيان بالنسبة للفلسفة الإسلامية، إذ أن جهود الكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد، وغيرهم، في الدفاع عن الفلسفة الإسلامية، لا يمكن أن تنهي إشكالية معارضة الفلسفة ومحاربتها الى الأبد، فتلك على ما يبدو سنة الهية ومن مختصات الطبيعة البشرية، المبنية أساسا على التدافع.

يستعرض الديناني السبب الفاعل في ظهور الازدهار الفكري في العالم الإسلامي، إذ يقول: "إن الثروة الفكرية والازدهار الثقافي إنما هما محصلة لنوع من التلاقح والتماسّ الفكري، وهو ما يعدّ من الشروط الأساسية لنضج الأفكار وتطورها، ويمكن الحصول على نوع من الانسجام والاتساق الثقافي، من حالة اللانسجام بين الأفكار والرؤى، والعناصر المتضادة تتبادل الاتصال فيما بينها في نفس الوقت الذي تسلك فيه سلوك التضاد والتعارض، والأشياء إنّما تلتحم ببعضها في ظل الاتصال"¹⁵، والقصد من هذا الكلام أنّ حركة الفكر الفلسفي في العالم الإسلامي، رغم تنوع وتعدد الاتجاهات والتيارات فيها إلى حدّ التضاد والتعادي، تشكل في مجملها وحدة متجانسة، وإن كان الاختلاف بينها واضحا.

إننا عندما ننظر إلى قوى النفس الإنسانية مثلا، فإننا نجد بينها اختلافا في الماهية واختلافا في الوظائف والأدوار، وحتى تضادا في بعض الأحيان، ومع ذلك فالقوى الثلاثة للنفس - مع اختلافها - تشكل في النهاية وحدة متجانسة، هي النفس الإنسانية، وقس على ذلك في كثير من الأشياء والمظاهر.

بهذا المعنى يمكن القول إن ماهية الفلسفة الإسلامية تتجلى في تلك الجدلالات والتناقضات الموجودة في مختلف التيارات والمذاهب الإسلامية، إن حقيقة هذه الفلسفة لا ترى إلا في تشظيها أو تفتتها، أي في ذلك التوتر الداخلي الذي يميزها، وإغفالنا هذه الحقيقة يجعلنا لا نفهم معنى الفلسفة الإسلامية بشكل صحيح، وندخل باستمرار في جدالات لا تنتهي.

في هذا الصدد يقسم الديناني المعارضين للفلسفة الى ثلاثة أقسام وهم:

أ - المؤمنون والمعتقدون بالأديان، وهؤلاء قد نزعوا نحو الجمود على الظواهر الدينية حتى في أصول العقائد، ورفضوا بشدة كل تعمق وتدبر أو تفكر في المعاني الدينية.

ب - الكثير من العرفاء وأهل السلوك الذين يرون في الاستدلال العقلي والسعي الفكري حجابا للمعرفة، والتخلص منه شرط للوصول الى الهدف.

ج - الحصوليون، وكافة أولئك الذين يعتمدون على القضايا العلمية والتجربة، ولا يعيرون أدنى أهمية لكل ما يخرج عن دائرة التجربة العلمية والعلم الحصولي¹⁶.

هذه الفئات الثلاث وإن اختلفت في طريقة معارضتها للفلسفة، فهي تسعى إلى تحقيق هدف واحد وهو محاربة الفلسفة.

أمّا عن أولئك الذين يحاربون الفلسفة والفلاسفة انطلاقاً من الجمود على الظواهر الدينية، فهم متوفرون بشكل كبير في تاريخ الثقافة الإسلامية، وما يزال حضورهم قائماً ومؤثراً إلى اليوم، ولعلّ أهم ميزة تميزهم، حسب الديناني، هي أنهم متعصبون ومنغلقون على ذواتهم، بحيث يتجنبون الانفتاح على التعمق والتدبر في المعاني الدينية، ويكتفون بالجمود على الظواهر الدينية في أصول العقائد، "ومن يجمد على الظواهر في أصول العقائد وقواعدها، فلا بد أن يصر على الجمود

انطلاقاً من التعصب ويغلق طريق التفكير في المعاني الدينية، والتعمق فيها، ولا يدع بالتالي مجالاً لظهور الأفكار الفلسفية¹⁷.

هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ الفكر الفلسفي يقوم على طرح السؤال، وهو يبرز ويتجلى من خلال ذلك، لكن حين يكون الجوّ متاحاً فقط لأولئك الذين ينزعون نحو الجمود، خصوصاً أهل الجمود على العقائد الدينية، فإنّ ذلك سيؤدّ التعصب ضد الآخر المختلف ويغلق طريق التفكير في المعاني الدينية والتعمق فيها، وبالتالي لا يدع مجالاً لظهور الأفكار الفلسفية.

وإذا كان كثير من الفقهاء ينطلق في معاداته للفلسفة من التعصب والجمود، فإنّ العرفاء يعادون الفلسفة ليس من المنطلق ذاته، إنّما يعيرون على الفلاسفة قصر نظرهم واقتصار جهدهم على الوقوف عند مرحلة الاستدلال العقلي الذي يعدّ مرحلة متأخرة عن مرحلة الشهود والمكاشفة التي يعتمدها العرفاء وأهل السلوك، أي أنّ "الهجوم الذي شنّه العرفاء على الفلاسفة ينطلق من اعتقادهم بنقص عمل الفلاسفة وضرورة أن يذهب هؤلاء أبعد من دائرة الاستدلال، وأن يتجاوزوا هذه المرحلة كي يصلوا إلى ساحة الشهود والمكاشفة"¹⁸.

وحين نقول أنّ العرفاء يعادون الفلسفة وأهلها، لأنّ منهج الاستدلال الذي يعتمدونه، غير كافٍ للوصول إلى الحقائق الدينية، فهذا يعني أنّ أصل الخلاف بين الطرفين قائم على أساس المنهج الذي تقوم عليه معارفهم، على أنّ العرفاء بحسب الديناني، وإن كانوا يختلفون في معاداتهم للفلسفة عن أهل الجمود على الظواهر، فإنّ ما يدفعهم أحياناً إلى مناوأة الفلسفة والفلاسفة يكون ذا بواعث دينية وبالتالي فهم - من هذه الجهة - يلتقون مع فئة الجامدين على الظواهر الدينية.

بهذا المعنى يمكن أن نلاحظ أنّ الفلسفة الإسلامية تقع في وسط بين طرفين، أحدهما يعادي هذه الفلسفة وأهلها بسبب أنّهم تجاوزوا مرحلة الجمود على الظواهر

الدينية واتخذوا طريق الانحراف بإطلاق العنان للعقل على حساب النص، والآخر يعاديهما بسبب أن الفلاسفة توقفوا عند منهج الاستدلال العقلي دون أن يتجاوزا ذلك الى منهج الشهود العرفاني، الذي يعد الوسيلة الوحيدة لكشف الحقائق وصبر أغوارها.

وأما عن القسم الثالث من المعادين للفلسفة، والذين يسميهم الدينامي بالحوصليين، أولئك الذين يرون أن الحقائق لا يمكن أن تخرج عن دائرة التجربة، فهؤلاء قلة في الثقافة الإسلامية، بل إن غالبيتهم من أهل الثقافة الغربية، وقد كان حضورهم واسعاً خلال القرنين التاسع عشر، والعشرين، ومازال حضورهم قائماً الى اليوم، ويمكن أن نجد لهم نماذج في الثقافة العربية والإسلامية المعاصرة¹⁹، ولسنا هنا في معرض الحديث عن هؤلاء، وما يهمنا هو استعراض المناوئين للفلسفة في ساحة الثقافة الإسلامية.

لا يكتفي الدينامي بمحاولة تبيان ماهية الفلسفة الإسلامية من خلال حركة الأخذ والردّ التي طبعت تاريخ الثقافة الإسلامية، ولكنّه يحاول التأكيد على أنّ المنحى البياني الذي شهدته الفلسفة الإسلامية خلال تاريخها، متعلق أشدّ العلاقة بالأحداث السياسية والاجتماعية التي طبعت تاريخ الدولة الإسلامية، إضافة إلى البواعث الدينية وعلاقتها بالمجال السياسي من جهة، والفضاء الاجتماعي من جهة ثانية، وفي هذا الصدد يقول الدينامي: "إن الأفكار الفلسفية في العالم الإسلامي لم تتطوّر بدهوء وبدون صراع، وإنما كانت تجابه في كل مرحلة زمنية نوعاً من العداء والمعارضة، ولا شكّ في أن القضايا السياسية والتطورات الاجتماعية، كانت تلعب دوراً رئيسياً في رفض الأفكار الفلسفية أو تأييدها"²⁰.

كانت البواعث السياسية في معاداة الفلسفة في العالم الإسلامي حاضرة بقوة، ويمكن أن نتلمحها مثلاً، في مواقف أبي حامد الغزالي الذي كان على ارتباط وثيق

بالنظام السياسي للدولة السلجوقية، والتي عرف عنها دعمها للمذهب الشافعي والكلام الأشعري، في مقابل مجافاة ومعاداة الفلسفة، ويمكن أن نعثر على موقف مشابه مع علاء الدين الطوسي الذي كتب هو الآخر مؤلفا بنفس عنوان كتاب الغزالي، وهو "تهافت الفلاسفة"، ولا يخفى على الدارس للفلسفة والتاريخ الإسلامي أن علاء الدين الطوسي كان تحت نفوذ وهيمنة الخلافة العثمانية.

حتى أن أشهر الفرق الكلامية الإسلامية من قبيل المعتزلة والأشاعرة، وهما من أكثر التيارات مناصبة لعداء للفلسفة، كانت هذين الفرقتين على اتصال وثيق بالأنظمة السياسية التي عاشت في كنفها.

كل أولئك الذين كتبوا ضد الفلسفة والفلاسفة، بحسب الديناني، كانت لهم دوافع مادية وسياسية "ان معظم أولئك الذين عبروا عن معارضتهم للفلسفة، كانوا واقعين تحت تأثير القوى السياسية المهيمنة آنذاك، فضلا عن تلقينهم للمكافآت ازاء التصنيف ضمن هذا الاطار"²¹.

من جهة أخرى، عند إلقاء نظرة على الكتب التاريخية الشهيرة التي ترجمت للفلاسفة المسلمين، سنلاحظ أن هذه الكتب اعتمدت منهج الجرح والتعديل، وهو منهج أهل الحديث، وكان كل مترجم يترجم للفيلسوف انطلاقا من موقعه الايديولوجي، فإذا كان المزاج المعرفي للمترجم لا يتوافق مع المعارف الفلسفية فإنه يعتمد الى تجريح الفيلسوف المترجم له، أو على الأقل يتجاهل أهميته المعرفية فيكتفي بالإشارة إليه باقتضاب، والتجريح هنا لم يكن يستند إلى قيمة الفيلسوف معرفيا، بل إلى قيمته الأخلاقية من وجهة نظر المترجم، وذلك ما يمكن أن نلاحظه في "تذكرة الحافظ" للقيسراني، وسير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي، ولسان الميزان لابن حجر العسقلاني، وغيرهم²².

إن أغلب كتب التراجم الإسلامية تناولت الفلاسفة بشيء من العدا، ويمكن أن نستشهد في هذا السياق بعدد من النصوص، وهذا ما يؤكد الإمام السيوطي الذي أورد نصاً في كتابه تدريب الراوي، قال فيه عن الفلاسفة: "فقد صرَّح بالحطّ من مكانتهم، وعدم قبول رواياتهم وأقوالهم ابن الصلّاح في فتاويه، والمصنّف في طبقاته، وخلّاق من الشافعية، وابن عبد البرّ وغيره من المالكية خصوصاً أهل المغرب، والحافظ سراج الدين القزويني وغيره من الحنفية، وابن تيمية وغيره من الحنابلة، والذهبي لهجّ بذلك في جميع تصانيفه"²³.

والملاحظ من قول السيوطي أن المذاهب الفقهية السنية الأربعة على اختلافها قد اتفقت على فساد الفلاسفة وعلومهم، فالفلسفة من علوم الأوائل التي ملئت بالأباطيل والضلالات حسب الفقهاء وأهل الحديث، لذلك كان لا بد لكل من يشغل بها أن يُصبح مدعاة للريبة والشك، بل وحتى أن يصبح هدفاً لرميه بالزندقة والكفر والإلحاد.

حتى الغزالي تعرض للانتقاد من أصحاب العقلية التقليدية، فبالرغم من أنه كان في صفهم بانتقاده للفلسفة والفلاسفة والهجوم عليهم، إلا أنه تعرض للعتاب بسبب أنه دخل بحر الفلسفة وتجراً على الاشتغال بها فترة من حياته، فقد انتقده في ذلك الذهبي الذي قال عنه: "قرأ علوم الفلسفة قبل استبحاره في فن الأصول فأكسبته الفلسفة جرأة على المعاني وتسهلاً للهجوم على الحقائق، لأن الفلاسفة تمر مع خواصهم لا يزعها شرع"²⁴، وإذا كان وضع الغزالي كذلك أمام المناوئين للفلسفة من التقليديين على وجه الخصوص، فكيف يكون موقفهم من ابن سينا والفارابي وابن رشد وغيرهم من الفلاسفة المسلمين الذين تبحروا في علوم الفلسفة واشتغلوا بها طوال سني حياتهم؟.

إن استجلاء وقائع التاريخ الإسلامي، والنظر في الثقافة الإسلامية على مر تاريخها، يؤكدان على أن كثيرا من المذاهب والتيارات كانت تتأصب الفلسفة والفلاسفة العداء، ومن أشهر هؤلاء، سنجد الفقهاء، والمتكلمين، والعرفاء، وغيرهم، وكثيرا ما يستعرض الديناني من خلال مؤلفاته، مواقف الفقهاء وأهل الحديث، إضافة إلى العرفاء والمتكلمين، تجاه الفلسفة والفلاسفة، ليؤكد على حقيقة كون ماهية الفلسفة الإسلامية وحقيقتها تتجلى من خلال تلك المعارضات والتحديات والمشاكل التي واجهتها، "إن معارضة أهل الحديث ومؤخذات المتكلمين وانتقاداتهم العنيفة للأفكار الفلسفية ليست لم تتل من الأساس الفلسفي فحسب، وإنما ساعدت أيضا على نضج الفلسفة وتكاملها"²⁵.

والحقيقة أن القول بموت الفلسفة الإسلامية بفعل ضربات المناوئين لها، من قبيل جهود الامام الغزالي، بالنسبة للديناني، محض ادعاء لا أساس له من الصحة، وهي الحقيقة التي أشار إليها عبد الرحمن بدوي عندما كتب يقول: "إنه لمن الغاية في السذاجة أن يقال أن كتابا من الكتب أو هجوما لمؤلف - مهما يكبر قدره - قد قضى على علم راسخ كالفلسفة، وكم من كتب وردود ومناقضات قد ألفت ضد الفلاسفة فلم تززع من مكانتها، ولم تصرف كبار العقول عنها، ومنذ أن نفذت الفلسفة إلى العالم الإسلامي والردود على الفلاسفة تتوالى، خصوصا من جانب المتكلمين، فلم يكن لذلك أثر يذكر في انتشار الفلسفة في العالم الإسلامي ولا في ظهور فلاسفة إسلاميين"²⁶.

لقد عانت الفلسفة الإسلامية كثيرا من ضربات المناوئين لها، لكنها ظلت قائمة دائما، وليس بوسعنا في هذا المقام أن نشير إلى كل تلك المآزق والتحديات التي جابهت الفلاسفة في حياض الثقافة الإسلامية، غير أن ما يمكن التأكيد عليه من خلال هذه الاشارات السريعة هو أن الفلسفة الإسلامية إنما نضجت وتطورت من خلال كل تلك التحديات والمشاكل.

ثالثاً: أصالة الفلسفة الإسلامية

لقد تكشّف لنا من خلال العرض السابق أن الفلسفة الإسلامية لم تكن طوال تاريخها العريض على وتيرة واحدة، فقط شهدت فترات ازدهار ونمو، كما شهدت فترات انحدار أيضاً، وقد أرجع الديناني ذلك الى عوامل سياسية، ودينية، لكنها في ظل كل ذلك بقيت قائمة وموجودة، فلم تتل منها ومن قوتها وأصالتها ضربات المناوئين لها، وكانت هذه الفلسفة مثالا عن قمة النشاط العقلي في الحضارة الإسلامية "ومن الطبيعي أن ترتبط بفترات ازدهار هذه الحضارة وانحدارها، ويكشف التاريخ عن انها شهدت عصورا ذهبية، كما مرت بأوقات عصيبة، وأحيانا خانقة، ولكنها ظلت في جميع الأحوال معبرة عن الاتجاهات الفكرية في العالم الإسلامي"²⁷.

وفي ظل ذلك يدافع الديناني عن أصالة هذه الفلسفة وفرادتها واختلافها عن الفلسفة اليونانية، على عكس الذين يدعون أن هذه الفلسفة ليست إلا إعادة صياغة لفلسفة أرسطو بلغة عربية، ومن هنا يعتقد الديناني أن البحث عن أصالة الفلسفة الإسلامية يمكن أن يتجلى من خلال وقائع كثيرة، لعل أبرزها أن هذه الفلسفة تناولت مواضيع وإشكاليات من صميم الواقع الإسلامي، "فالفلاسفة المسلمون لديهم مشاكلهم ومسائلهم الخاصة، وهي مشاكل ومسائل تختلف عن مشاكل ومسائل الفلاسفة اليونانيين، فهي منبثقة من مجابهة المتكلمين وسلسلة من المسائل الدينية"²⁸، ولذلك يمكن القول إن الطابع الديني الذي تتميز به الفلسفة الإسلامية، يشكل جزءا هاما من أصالة هذه الفلسفة، فقد كانت أهم إشكالية واجهها هؤلاء الفلاسفة المسلمون هي محاولة ايجاد صيغة توافقية بين الدين والفلسفة، أو بين الحكمة والشريعة.

لقد تبدت أصالة الفلسفة الإسلامية نتيجة جهود داخلية، وتجلت من خلال الحركة الفكرية التي قامت بين اتجاهات مختلفة داخلية الثقافة الإسلامية، وإن كان الديناني لا ينكر تأثر المسلمين بالفلسفة اليونانية والأخذ منها، فهو يؤكد أن المؤثرات

الداخلية كانت أكثر حضورا في بلورة الفلسفة الإسلامية، وقد تجلت تلك المؤثرات في حالة الأخذ والرد التي ميزت حركة الفكر الإسلامي، ووقفنا على تلك الحركة هو الذي من شأنه أن يكشف لنا عن ماهية وأصالة هذه الفلسفة، يقول الديناني: "لا شك في أن فلاسفتنا الأوائل كانوا على معرفة بالفلسفة اليونانية، إلا أنهم لم يكتفوا بهذا المقدار، فالفلسفة الإسلامية ظهرت الى الوجود بفعل المعارضات التي أبدتها المنتقدون والرافضون سواء كانوا متشرعين أو فقهاء أو متكلمين، والذين كانوا يرفضون جميعا الفلسفة اليونانية بشكل عام"²⁹.

وهنا يمكن أن نقول إن الديناني يقيم الاعتبار لمؤاخذات المتكلمين وأهل الحديث والعرفاء كجزء من ماهية الفلسفة الإسلامية وأصالتها، فعلم الكلام والتصوف بما يشتركان مع بعضهما في محاربة الفلسفة، فإنهما جزء من تلك الفلسفة، وهما مجالان من مجالاتها التي ساعداها على النمو والنضج.

خاتمة

ختاما يمكن أن نقول إن ماهية الفكر الفلسفي في العالم الاسلامي من منظور أستاذ الحكمة الاسلامية بجامعة طهران غلام حسين الابراهيمى الديناني، تتجلى من خلال التوترات الداخلية التي شهدها هذا الفكر، فالفلسفة الاسلامية لا يمكن أن نفهم حقيقتها الا بالنظر الى جملة المؤاخذات والردود والانتقادات التي شهدتها، سواء من داخل الفلسفة التي عرفت باسم المشائية الاسلامية، أو من خلال بعض تيارات الفكر الاسلامي الأخرى، كالكلام والعرفان وأصول الفقه والفقهاء أيضا، أولئك الذين انخرطوا في المشهد الفلسفي الاسلامي بطريقة أو بأخرى،

على أن أصالة هذه الفلسفة يمكن العثور عليها أيضا من خلال النظر في طبيعة المسائل التي اشتغلت عليها، والتي كان للمتكلمين والعرفاء وعلماء أصول الفقه دور في طرحها وتوسيع آفاق البحث فيها، وهي مسائل نابغة من داخل البيئة

الاسلامية وتطرح اسئلة من صميم ذلك الواقع، الذي يشكل فيه الدين مرتكزا أساسيا، وهو الشيء الذي افتقدت اليه الفلسفة اليونانية.

الهوامش والمراجع

- 1- غلام حسين الإبراهيمي الديناني (26 نوفمبر 1934) هو أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة طهران، ولد بمدينة أصفهان، وتتلذ في الحوزات العلمية على يد أشهر المشايخ والأساتذة الإيرانيين، من أمثال السيد البروجردى والإمام الخميني، كما درس الفلسفة والعرفان عند أبو الحسن الرفيعة القرويي ولزام أبحاث السيد محمد حسين الطبطبائي لأكثر من عشرة أعوام حتى عدّ من أبرز تلامذته وحملة فكره، وحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة والحكمة من جامعة طهران عام 1973م، وهو اليوم أستاذ للفلسفة الإسلامية بجامعة طهران.
- 2- الكندي، رسالة في حدود الأشياء ورسومها، تحقيق: محمد عبد الهادي أبو ريده، مطبعة حسان، مصر، ط2، 1978، ص123.
- 3- الكندي، رسالة في الفلسفة الأولى، المرجع السابق، ص32.
- 4- المصدر نفسه، ص 481، 482.
- 5- ابن سينا، عيون الحكمة، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، لبنان، ط2، 1980، ص16.
- 6- ابن رشد، فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال، تعليق: البير نصري نادر، دار المشرق المطبعة الكاثوليكية، لبنان، ط2، 1968، ص 27.
- 7- عبد اللطيف محمد العبد، الفكر الفلسفي في الاسلام، مكتبة دار الثقافة العربية، مصر، د ط، 1986، ص 22.
- 8- عبد الله النصري، مع الفيلسوف، تعريب: عبد الرحمن العلوي، دار الهادي، لبنان، ط1، 2005، ص 132.
- 9- المرجع نفسه، ص 325.
- 10- المرجع نفسه، ص 27.
- 11- عبد الله النصري، مع الفيلسوف، ص148.
- 12- غلام حسين الإبراهيمي الديناني، حركة الفكر الفلسفي في العالم الاسلامي ج1، ص13.

- ¹³- ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة، مصر، د ط، 1984، ص 107.
- ¹⁴- غلام حسين الابراهيمي الديناني، حركة الفكر الفلسفي في العالم الاسلامي ج1، ص 13، 14.
- ¹⁵- غلام حسين الابراهيمي الديناني، حركة الفكر الفلسفي في العالم الاسلامي ج1، ص 6.
- ¹⁶- غلام حسين الابراهيمي الديناني، حركة الفكر الفلسفي في العالم الاسلامي ج1، ص 14.
- ¹⁷- المصدر نفسه، ص 15.
- ¹⁸- المصدر نفسه، ص 17.
- ¹⁹- أنظر مثلاً المشروع الفكري لزكي نجيب محمود، رائد الوضعية المنطقية في العالم العربي.
- ²⁰- غلام حسين الابراهيمي الديناني، حركة الفكر الفلسفي في العالم الاسلامي ج1، ص 5.
- ²¹- غلام حسين الابراهيمي الديناني، المنطق والمعرفة عند الغزالي، تعريب: عبد الرحمن العلوي، دار الهادي، لبنان، ط1، 2004، ص19، 20.
- ²²- أنظر بهذا الخصوص، كتاب "اسلام الفلاسفة" لمنجي لسود، دار الطليعة، لبنان، ط1، 2006، ص 16 وما بعدها.
- ²³- المرجع نفسه، ص 19.
- ²⁴- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء ج 19، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط11، 1996، ص 341.
- ²⁵- غلام حسين الابراهيمي الديناني، حركة الفكر الفلسفي ج1، ص 515.
- ²⁶- عبد الرحمن بدوي، أوهم حول الغزالي، ورقة القاها الدكتور بدوي في مؤتمر الغزالي دراسات في فكره وعصره وتأثيره، كلية الآداب بجامعة محمد الخامس، الرباط، 1988.
- ²⁷- حامد طاهر، الفلسفة الاسلامية مدخل وقضايا، دار الثقافة العربية، مصر، د ط، 1991، ص 61.
- ²⁸- عبد الله النصري، مع الفيلسوف، المصدر السابق نفسه، ص 136.
- ²⁹- عبد الله النصري، مع الفيلسوف، ص 106. 107.